وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعه وطريق الى الاشاعة لامرين أحدهما ان اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لم ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجوا أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كنى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال المئام وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أجد الخبر وأحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * منه الضلوع على الاسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودع سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا

ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما احطت به خبرا

وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى أرى المدفون ينتظر النشرا

(لابى الحسن البصرى الماوردى)

الباب الرابع فى المباحث الادبيه

(فى أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)

والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه أمر زائد على المعاش فتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ماوراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى

العلم ممن نشأ في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولابد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شان الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من أمصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وعلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق والولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها أو نصيب منها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء (من مقدمة ابن خلدون)

فضـــــــل الكتابه

ولما لم يكن عندا كثر العرب كتابة في الجاهلية وكانت اذذاك أمة أمية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وغرضا أقيم عن الكتابة مقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل في بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز هو حرب بن أمية أو سفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على الحجاز يعني فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط في البلاد المنظمة غيره من الفنون والصناعات التي أكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لا تصلح الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المعادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه في محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التي هي وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهي في الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله

عليه وسلم أو علم ينتفع به أى نفعا متصلا دائم الثواب فالحديث الشريف فى قوله أو علم ينتفع به شامل لتعليم المعارف النافعة سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات فانها لا تخلو عن مدارك علمية وشامل أيضا لاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين وللتصنيف والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذى ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن وللناس أجمعين ويدل على ذلك ماورد فى رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الا عشرة فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل ووراثة المصحف والرباط فى الثغر وحفر البئر واجراء النهر وبناء البيت للغريب وبناء مسجد لله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ماذكر كما بيناه أولا وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان فى العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع أن يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك أو يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهى داخلة فى العلم النافع يدل على ذلك ماورد عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالمؤمن الغارس غرسا حسيا أو معنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أو معنويا فغرسه لا يفرشوكا مادام ملازم الاخلاص فقاصد النفع العمومى يثاب ثواب الخواص لخص الامام السيوطى المستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور فى النظم الآتى وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجرى * عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل * وغرس النخل والصدقات تجرى
وبيت للغريب بناه يأوى * اليه أو بناء محل ذكر
وراثة مصحف رباط ثغر * وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم * شهيد فى القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى * نحذها من أحاديث بشعر

مطلب الترغيب فى حب الوطن

ارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففى الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال على كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة وقال الاصمعى دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدنى فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
ولي موطن آليت أني أعزه * وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته * وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

اذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتي * فليس مكاني في النهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل * غنيت بخفض في ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظري * وغصن ثناه بالغداة يميني
واني لأنسى العهود اذا أتت * بنات الهوى دون الخليط ودوني
اذا أنا لم أرع العهود على النوى * فلست بمأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوى بنات الدهر أي حوادثه فالوطن محبوب والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن بل يقال ان البادي الجبلي يتعلق بجبال أوطانه ويعلق بأذيال باديته ولا تعلق الحاضر بمدينته وحاضرته بحيث لا ينتقل الخلف من باديته الا للانتجاع في الفلوات ويستسهل خرط القتاد ويرى عزه في الصحاري التي ألف طبعه سكنى خيامها وتريض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك ماحكي عن ميسون بنت بحدل أنها لما اتصلت بمعاوية رضي الله عنه ونقلها من البدو الى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر بمسقط رأسها فسمعها ذات يوم وهي تنشد

لبيت تخفق الارواح فيه * أحب الي من قصر منيف
وأكل كسيرة في كسر بيتي * أحب الي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج * أحب الي من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني * أحب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولي * أحب الي من قط أليف
وبكر يتبع الاظعان صعب * أحب الي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف * أحب الي من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني علجا من علوج العجم فالعربي كثير التعلق بباديته فلا يتمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه * من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادى ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الى ما يتمدح به العرب من سكنى البادية لان العز عندهم مفقود فى الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن فى الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالمنفعة ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضى

مالى لا أرغب عن بلدة * يكثر فيها الدهر حسادى
ما الرزق فى الكرخ مقيما ولا * طوق العلا فى جيد بغداد

وقال بعض أمراء الحرمين

فوض خيامك عن أرض تهان بها * وجانب الذل ان الذل مجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة * فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد و يمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضى بابل وتشوق اليها بقوله

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل * تحمل الى أهل الخيام سلامى
وانى لاهوى أن أكون بأرضهم * على أننى منها استفدت مقامى
وقد كنت كالعقد المنظم منهم * فها أنا ذا سلك بغير نظام
أبات أرجى أن يلم خيالهم * وكيف يزور الطيف دون منامى
فلا برق الاخلب بعد بينهم * ولا عارض الا بياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقى حيث قال

أبا بل لا واديك يا لبر مفعم * لدىّ ولا ناديك بالرحب آهل
ان ضقت عنى فالبلاد فسيحة * وحسبك عارا أننى عنك راحل
وان كنت بالسحر الحرام مدلة * فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الاعين النجل حسنها * فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرمونى فانى غرس دولتكم * فما بقيت فطواع ومذعان
وان أهنتم فأرض الله واسعة * لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر فى حق مصر

لولا أدين كبارهم * وصغارهم تيها وكبرا
ماالنيل من ماء الحيا * ة ولاجميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب فى الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتنى * بكل داء عنادا
ولو رجعت لاهلى * كانت بلادى بلادا

ويكفى فى حب الوطن أن كراهة الاجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه فى قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه (مما يحكى) ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر ليلا فى المدينة فسمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فأشربها * أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أى الى وصله لانه كان حسن الصورة وهو من بنى سليم فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها وله شعر حسن فحلق شعره فكان أحسن الناس بلا شعر فقال له أمير المؤمنين لا تساكنى فى بلدى فتشفع نصر اليه أن لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر رضى الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير المؤمنين سمتنى قتل نفسى فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه فقرن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر لكن أقول ما قال شعيب ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك ومن أحسن ماقيل فى حب الاوطان قول الصقلى

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة * فانى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا * حسبت دموعى أنهارها

وصقلية جزيرة بايطاليا المسماة الان سيسيليا كانت فى يد الاسلام زمنا طويلا ويناسب هذا قول من قال

نقل فؤادك مااستطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل فى الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بعضهم

على ربع العامرية وقفة * ليملى على الشوق والدمع كاتب
ولى مذهب حب الديار لاهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهب

وقال آخر

وقائلة ماذا وقوفك هـــــهنا * ببرية يعوى من العصر ذيبها

فقلت لها قلبي الملامة وانصفي * هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علامطيته واستقبل الكعبة وقال والله لأعلم أنك أحب بلد الله الى وأنك أحب أرض الله الى الله تعالى عز وجل وأنك خير بقعة على وجه الارض وأحبها الى الله تعالى ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة لايؤدى حق الوفاء بها الامن حاز الشمايل النبيلة ولاتعين عليها الا الهمم العلية والعزائم الملوكية التى تقلد أعناق الامة حلى المنة والنعمة فتبعثهم على التشبث بالاوطان والتعلق بأذيال الاخوان والخلان لاسيما اذا كان الوطن منبت العز والسعادة والفخار والجادة كديار مصر فهى أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبرهامنهم بالسعى لبلوغ أمانيها بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين (الاولى) انها أم لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية) انها ودود بارة بهم مثمرة للخيرات منتجة للبرات فبرها يعود على أبنائها بثمرته وترجع اليهم فائدته ويحسن الصنيع بتضاعف الفوائد العوائد أضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات البر من أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لاتحرم من ثمرات مصر الاجانب فبالاحرى أن تتمتع بها الاقارب فني الاثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها (ويروى أيضا) قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الامصار كلها ولايزال فى مصر بركة مافى الارضين كلها وقيل فى تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها أن المراد بمشارق الارض ومغاربها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر خزائن الارض والجيزة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام

(مناهج الالباب)

المنفعة العـــــمومية

هى ولامداجاة فى الحق قوام العمران وسر نظام الاجتماع الانسانى وطريق تقدم المدنية لاتقوم بدونها سعادة ولاتتم مع عدمها حضارة ترتقى الامم بتمسك أفرادها بها وتنحط باعراضهم عنها أرأيت لو أهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفيا بالاشتغال بمصلحته الذاتية ومنفعته الشخصية لايهمه غير نفسه ولايعنيه سوى أمره ان سلم فعلى الدنيا السلام أو مرض فلا يرثى أحد من الانام هل تبقى بين الناس صلات أو يقوم اتحاد على عمل مفيد ومشروع حميد

هل يمكن أن يكون لامة جند منظم يردّ عنها طوارق الاعداء و يبذل روحه في مواقف الكفاح صونا لشرفها وحياطة لحوزتها و يفتح لها البلدان و يقوم بكبح جماح أهل العصيان طلبا لتأييد منعتها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها لولم تكن قلوبهم مشربة حب المنفعة العمومية

أم هل يمكن أن يكون لها من أمرائها و وزرائها وجالس أعيانها سياسة يديرون أمرها و يرفعون قدرها يجهدون أفكارهم في تحسين مستقبلها و يكدحون في توسيع نطاقها مع أنهم يتيقنون أنهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد أجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم أن يتفرغوا لادارة أمورهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك أوطارهم ولاسيما أصحاب الثروة الواسعة منهم

أم هل يمكن اذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد أن تعاني العلماء مشاق الاسفار وتقتحم الاخطار في البحث على أثر يشاهدونه أو خبر يروونه أو علاج يجربونه أو مظنون يحققونه وقد يتوقعون على أموالهم وأنفسهم اتلافا في غضون أبحاثهم واختباراتهم و يقدمون بعد ذلك عليها طمعا في حقيقة تنكشف للخافين ومخبوء يظهر للتالين

حب المنفعة العمومية رأس الفضائل وأس الخلال الحميدة ولو ربي الناشؤن مناعليه وتعوّدوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التي منها انتشار السرقة في البلاد والعبث بين العباد وغماء عن معاملة الحكومة لهم بالشدة وارهاف الحد

ومنها ظهور داء الرشوة على أيدي كثير من المستخدمين وهو داء عضال اذا لم يستأصل العضو المصاب به بالقطع فسد جسم الديوان الذي فيه هذا العضو واختل نظامه وتوقف قضاء أي مصلحة فيه على الدينار ولو كان قضاؤها من آكد الواجبات

ومنها التكاسل في الاعمال الخطيرة والتهاون في الامور العظيمة والاتخذال في مواقع القتال وتفرق قلوب الرجال وذهاب كل في مجال وفقد عروة الارتباط بين أفراد الامة وسوء الاداوة وغير ذلك مما يطول شرحه ولا يندمل جرحه كل ذلك لم ينشأ الا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها

أين نحن ممن يخوضون غمار البحار يقيسون أعماقها و يكتشفون جزائرها وما بها من الحيوان والنبات و يخترقون مجاهل الارض كاواسط أفريقية ودواخل أرض الصين وأطراف الجهات القطبية شغفا بتوسيع المعارف وتقرير الحقائق أين نحن ممن وقفوا أنفسهم على تبيين أسرار الكائنات التي تتحقق لنا بها حكمة الحكيم في قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) فاخترعوا الآلات التي يحصل بها الانسان نتيجة ألوف ممن لا يعلمون بها واهتدوا الى استنباط القوانين الكلية التي باتباعها يؤمن من الوقوع في الخطا في الجزئيات

وما كل من قام بذلك كان مأجورا ومنتظرا من الناس منفعة ذاتية حتى يتوهم أن منفعته الذاتية هي التي قادته الى مواصلة الانعاب وألجأته الى الولوج في هذا الباب لان كثيرا من أصحاب الآثار العظيمة كانوا يفقدون في سبيلها ثروتهم غير طالبين عنها بديلا وربما كانوا يبذلون جاههم وحياتهم وأنت تعلم أنه لا شيء عند طالب المنفعة الخاصة أرفع منها

هذا ديوجينس الكلبي الفيلسوف اليوناني كان يصدع بحكمته وآرائه ولا يبالي بالسخرية بالامراء والعلماء ولا بخرقه اجماع أهل عصره على خلاف ما يرى حتى رمي بالجنون وعومل بالهون

توجه اسكندر ذات يوم الى مدينة قورنته ليرى ديوجينس هناك فرآه جالسا في الشمس بجانب برميله الذي كان أعده للبيت فيه في الليل وكان اذا أراد الانتقال الى مكان آخر حمله اليه فلم يعبأ باسكندر فدنا منه وقال له أما تخافني يا ديوجينس أنا الملك اسكندر فقال له أأنت خير أم شرير فقال له اسكندر بل خير فقال اذن لا أخاف فعجب منه وقال له اقترح علي ما تشاء أقضيه لك فقال له تذهب من امامي فقد حجبت عني ضوء الشمس وقطعت لذتي بها فصار اسكندر في غاية العجب لما رآى من هذا الفيلسوف

والخليل ابن احمد الفراهيدي مؤلف كتاب العين في اللغة وشيخ سيبويه امام النحويين اجتنب الناس مدة وأخذ يتأمل في أشعار العرب حتى اهتدى الى اختراع علم العروض فدخل عليه ابنه مرة فوجده يقطع بيتا من الشعر فذهب الى خارج البيت وقال أبي قد جن في هذا اليوم فاعتقد الناس ذلك والخليل لم يكترث حتى أتم استنباطه فخرج اليهم وأفادهم بهذا العلم

ومحيي الدين ابن العربي صاحب المؤلفات الشهيرة كان يذيع تعاليمه بين الناس ومنها ما لا يوافقون عليه فقتلوه والشواهد في هذا المقام كثيرة فلو كان هؤلاء الرجال يبغون المنفعة الخاصة ما تعرضوا لمخالفة أهل عصرهم ومنابذتهم في آرائهم فيا أيها المشغوفون بذاتهم العاملون على لذاتهم أي مجد للانسان اذا لم تتعد آثاره وأي خير فيه اذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه وأي فضل له في حبس آثاره في صحن داره

اذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم * وأفنيتمو أيامكم بمدام
فمن ذا الذي يغشاكموفي ملمة * ومن الذي يلقاكم بسلام

هبوا أنكم أوتيتم حكمة لقمان وفصاحة داود ومال قارون وجمال يوسف وقوة عوج وعمر نوح ولم يشركم في هذه النعم أحد فأي فائدة للدنيا من وجودكم وأي ذكر لكم يبقى بعد مماتكم

خلقوا وما خلقوا لمكرمة * فكأنهم خلقوا وما خلقوا

ولا يقال ان من يعمل ليخلد فى التاريخ اسمه يقصد منفعة شخصية وهو التمتع بسماع الشكر وحسن الذكر لان هذا التمتع لا يدرك منه شئ بعد الممات وهو فى الحياة قلما يجتنى ثمره كثيرا ما علمنا بمن بذل الالوف سرا وأجرى الخيرات مختفيا لا يريد جزاء ولا شكورا ولم يبعد عنا نبأ الرجل الامريكى الذى قدم مصر حديثا ووزع الاموال الجمة على بعض الجهات الخيرية وشرط على أهلها أن لا يقلقوه بالاطراء أو يقطعوا راحته بالثناء

ان من جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات وانما تستر عن العيون بستار العجز وحجاب الضعف ومتى أسعده الامكان عكف عليها ومال اليها بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة فان الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحاوله مصافحة الحسنات ومكافحة السيآت ولو نافرته الايام وعانده الزمان وكل ميسر لما خلق له (حفنى افندى ناصف)

(مطلب تعميم أبناء الوطن فى مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف فى الدين)

قد حث صلى الله عليه وسلم على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون فى الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعنى يا عباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه فاكتسبوا ما تصيرون به اخوانا فى المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ما تصيرون به اخوانا للتعاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بائتلاف القلوب وتواطئ الكلمة كما يفيده قوله تعالى هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان اخوة العبودية التى هى التساوى فى الانسانية عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التى هى حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التى هى الاخوة الاسلامية وهى اكتساب ما يصيرون به المسلمون اخوانا على الاطلاق من أداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم أخو المسلم يعنى أخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد وهى أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وفى الصحيحين مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وروى أبو داود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذى ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه عنه أى يبعده عنه ولا مانع أن يعم فى مكارم الاخلاق فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثروته لان

الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية الاخوة الوطنية فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لا يظلمه أى لا يدخل عليه ضررا فى نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافى الاخوة (مناهج الالباب)

(فى طباع العرب وأخلاقهم وانقسامهم الى قبائل)

قال المؤلف هردر ان العرب فى قديم الزمان أعنى فى زمان الجهالة الذى يطلقونه على الاعصر الاول من تاريخهم كانوا منتشرين خلف بحيث جزيرتهم وكانوا قد أسسوا ممالك صغيرة فى العراق والشام وكانت بعض قبائل منهم تسكن بوادى مصر وكان الحبش من نسلهم وكان جميع الصحارى التى فى أفريقه ارثا لهم ولما كانوا منفصلين عن أعلى شمال آسيا برمال كالجبال وآمنين من دهمات الملوك الفاتحين لم يكن شئ يضر بحريتهم ولا بالتكبر القائم بهم من حيث جلالة أصلهم وشرف عائلة آبائهم الاول وشهامتهم التى لا تغلب ومن حيث لغتهم التى لم تزل باقية على نقائها وحالتها الاصلية وزيادة على ذلك انهم لما كانوا ساكنين فى مركز تجارة الجنوب والمشرق كانت تنعكس اليهم أنوار معارف جميع من جاورهم من الامم ويشتركون معهم فى اجتهاد تجارى قد جعلها حسن وضعهم فى ذلك المركز طبعا لهم فبناء على هذا قد وجد فيهم من النشأة الاصلية نوع ممارسة عقليه لم يظهر مثلها فى سكان جبال أو رمال ولا جبال النابى وبذلك حدث فى لغة العرب التى هى لطيفة وبسيطه العبارات المجازية والحكم التهذيبية قبل تفكرهم فى كتابتها بزمن طويل وكان على جبلهم المسمى بطور سينا نزول ألواح الشريعة للعبرانيين وقد سكنت هذه الامة التى بعث اليها موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام مع قبائل العرب فى أغلب الازمان

وكان قدماء العرب يحافظون على أخلاق أجدادهم النبوية ولكنهم قد تغيرت طباعهم بعد ذلك فصاروا سفاكين للدماء مسترسلين فى السامرات معتقدين الاوهام الكاذبة ذوى ثورة وشدة ميل الى المعتقدات الاخر والاباطيل وكأنهم قد وهبوا شبيبة مؤيدة واقتدارا على فعل أعظم الامور متى غلبت عليهم فكرة سامية فهم وان كانوا ذوى حرية وكرم وعزة نفس الا أنهم سريعوا الغضب أقوياء الجراءة فترى فى الواحد منهم صفات الفضائل والرذائل التى عليها أمته واضطراره الى أن يستحصل بنفسه على ما يحتاجه من الضروريات المعاشية جعله كثير السعى والجهد وهو صبور لتعوده على المتاعب المتنوعة التى هو مجبور على تحملها وهو يحب الاستقلال حتى كأنه هو الخير الوحيد

الذي قدمن عليه بالتمتع به ولكنه كثير المشاجرة كراهية في مطلق التحكم عليه وحيث كان صعب المعاملة مع نفسه كان قاسي القلب شديد الحرص على الانتقام في أغلب الاحيان

ولقد أوزعهم جميعا اشقاكهم في المستقر والطباع جبلة واحدة في شرف النفس ففخارهم بالسيف واقراء الضيف وفصاحة اللسان بل كان السيف هو الكفيل الوحيد بإثبات حقوقهم وكان اقراء الضيف معتبرا في ظنهم انه القانون الجامع لقوانين الانسانية وكانت الفصاحة لعدم معرفتهم بالكتابة تستعمل في فصل الخصومات التي كانت لا تنهيها المحاربات

وأما انقسام العرب الى قبائل فهو أيضا نتيجة من نتائج معيشتهم البدوية وكانت العوائد الجارية لديهم تقوم مقام القوانين الشرعية وكانت عائلة تجتمع حول كبير يكون حكمه عليهم دائما كحكم الاب على أبنائه لثبوت حق الارشدية له وكانوا يسمون الرئيس شيخا أو سيدا وكانت العائلات الاصلية في العرب أشبه شيء بعائلات أشراف قدماء الرومان وعائلات أشراف بلاد أوروبا وكان على جميع المشايخ شيخ أعلى منهم رتبة فكان يعتبر قائد جيشهم القليل العدد ويلقب بعض الاحيان بالامير (أي حاكم تلك الاحياء أو ملكها) ولكن كان حكمه مقيدا جدا بل لم يكن ينجو من الاقتصاص منه بمثل جنايته (١)

وكان موكلا على جميع مصالح العائلات الا انه كان لا يقدر على تمييز مصلحة نفسه من مصالحها لان القبيلة عائلته ومنسوبة اليه فهو وان كان الامير الذي بيت الحكم بنفسه في جميع الدعاوى العظيمة الا أنه كان لا بد له من أن يصغي الى آراء المشايخ قبل بت الحكم فكانت جميع القبائل منتظمة على هذا النسق وربما كانت تجتمع عدة قبائل مع بعضها فتكون قبيلة واحدة وفي هذه الحالة يكون حق الحكم لشيخ أقواهم شوكة وكثيرا ما كانت القبائل التي ترى وسائل عيشتها قد تقلدت بالحرب المشؤمة تتقلل وتختلط بقبيلة أخرى ذات اقتدار على حمايتها وبكثرة هذه المخالطات والمواخاة يتضح كون كثير من أسماء القبائل لم يبق ذكره الى الان

وما دامت الامة العربية آلفة للعيشة البدوية لم يغير تنظيم قبائلها الذي هو النتيجة المتولدة من نفس تلك المعيشة أدنى تغيير بل لم يزل ذلك الانتظام باقيا على ما كان عليه وان كان قد تنوع في الجملة في أي محل من بلادهم أنشئت فيه مدائن صار حكم المشايخ فيه مطلق التصرف غير أن القبيلة التي لم تدخل المدينة لم تزل كما كانت في الايام الاول معتبرة كالعنصر الحقيقي لتلك الجمعية التأنسية (أي سكان المدن التي تشتاق النفوس الى الوقوف على حقيقة حالها)

---

(١) راجع كتاب الابحاث الجديدة في تحقيق التاريخ القديم تأليف ولنه (بضم الواو وسكون اللام) والمجلد العاشر من تاريخ افاظط الساطة لرومانية وزوالها تأليف موسيو جيون (بكسر الجيم الفارسية وتشديد الياء العربية)

(فى ميل العرب الى الوحدة السياسية وفى تجمعهم بسوق عكاظ وفى منازلاتهم بقصائد الشعر)

أقول كان هنالك عدة أسباب تستوجب حصول اتحاد العرب مع بعضهم بالفعل السبب الاول اشتراكهم فى الاصل مع عدم ما كان بين الاسماعيليين والقحطانيين من منافسة المعاصرة واستلزام الغارة فجاشى الحبش للتأليف بين هاتين العائلتين العظيمتين حتى لم يبق لصيرورتهما تحت لواء واحد الا شئ يسير والسبب الثانى اتحادهم فى الاخلاق والعوائد فكانوا جميعا متمسكين باوهام العبادة الوثنية الباطلة وبالعوائد الجاهلية العتيقة ماعدا بعض قبائل يهودية أو نصرانية فاما عادة الختان فكانت عامة عندهم وكان عند جميع القبائل تقريب الازواج لموت بعضهم قربانا ومعاملة النساء معاملة الرقيق واباحة تعدد الزوجات ودفن البنات وهن على قيد الحياة بيد آبائهم الفقراء اذ كانوا يخشون من تدنيس أعراضهم ذات يوم وكان عندهم تكبر وحشى لكن مع افراط فى حب شرف النفس فكانت هذه التصورات وتلك العوائد التى من شأنها احداث البسالة والبطلية الحماسية توزعهم الشجاعة والكرم وتحملهم على المحاماة عن المظلوم نيابة عن الشرع وعلى تقديم الوفاء بما يعدون به على الحياة وكان عند هؤلاء العرب أيضا حب الانتقام والافراط فيه وقانون المقاصة النافذ على الجميع والاحتياج الى المساواة وجواز النهب والسلب من بعد الانتصار واقامة الشطارة والقوة مقام الحق وكان عندهم أيضا اقراء الضيفان مع عجيب حرمان أنفسهم وشدة التشوق الى الصيت والسمعة بين القبائل وهو السبب الذى يحمل صاحبه على فعل أجل الافعال وعلى ارتكاب أعظم الجنايات والآثام فهذه الخصال هى صورة ما كان يشاهد فى بلاد العرب وأما شهوات نفوسهم فكانت أكبر تلك الخصال غلبة وظهورا فيمكن أن نستنبط من ذلك انه متى اتجهت عقولهم الهائجة المخاطرة الى شئ وحيد ونبت اليه وثبة واحدة لا يصدها عنه شئ وكان وصولها الى هذه الغاية مستلزما أيضا السبق شرطين الاول الاتحاد فى اللغة والثانى وحدة الدين فاما الاول فكان بعضه موجودا فيهم وبيان ذلك أن العرب لما كانوا منقادين الى غرائزهم دون غيرها كان ذلك مهيئا لاختلاط لغات قبائلهم العديدة ببعضها وصيرورتها لغة واحدة ولما كانوا ذوى غيرة على ايصال أعمالهم العجيبة وما آثرهم الى ذراريهم كانوا يحبون الاشعار حيث رأوها الوسيلة فى توصيلها اليهم يريدون بذلك أن ينشر فخارهم ومجدهم فى جميع بحيث جزيرة العرب الا أن كلام مؤلفى نجد والحجاز لم يكن يفهمه مؤلفو الكلام بارض اليمن بل لم تتفق قبائل البلاد الواحدة على لغة واحدة وكان شعراء العرب هم الذين وكل اليهم اختراع لغة أعم من تلك اللغات وبرواية أشعارهم فى كل جهة تعينت الالفاظ المعدة للدلالة القطعية

على الافكار والتصورات ومتى كانت عدة عشائر تستعمل عبارتين مختلفتين للدلالة على فكرة واحدة كانوا يختارون منهما ما اختاره الشاعر فى ذلك المقام وبهذه المثابة تكونت اللغة العربية بالتدريج وقد فهموا مع ذلك فوائد التمدن فصاروا يقابلون الابتكارات العقلية بالاعتبار الواجب الذى لم يكونوا يسمحون به الى ذلك الزمن الا لنصرات القوة البدنية فانشؤا جمعيات عامة كانوا يستفيدون منها التعارف والتصاب ولم تكن حقيقة تلك الجمعيات التى كانت تعقد فى عكاظ وهى مدينة صغيرة بين الطائف ونخلة على بعد ثلاث مراحل من مكة وفى المجنة وذى المجاز خلف جبل عرفات (١) الا مجالس حافلة للمفاخرة والمفاضلة بالشعر لاغير وبالجملة فلم يكن فيها شئ من التحكم على النفوس فضلا عما كان فيها من المساوئ فانها كانت تعقد كالالعاب والمواسم الاولمبية فى قديم الزمان بيلاد اليونان فكان يقوم شجاع ويمشى مشى المتكبر أمام جمعية صامتة جامعة لافكاره وليس عليه شئ من العلامات الدالة على جلالة قدره ولا شئ من الزينة الدالة على علو رتبته ومع ذلك كانت جميع الابصار تشخص اليه فيقف على عال من الارض وينشد قصيدة كاملة على الحاضرين بصوت رخيم رنان من غير استعانة بشئ غير الالهام أو رويته حافظته الواسعة الاقتراح فكان تارة ينشد أعماله العظيمة ووقائعه الجسيمة وشرف قبيلته وطورا يصف لذائذ الانتقام وتارة لطائف اكرام الضعيف وطورا الشجاعة وفى كل لا يغفل عن مدح شرف النفس والعرض وكان فى بعض الاحيان يقتصر على وصف عجائب الاكوان المشاهدة والعزلة عن الناس فى الصحراء والواحات المشتهاة جدا وخفة عدو الظباء وكان السامعون لا ينظرون الا الى فيه ويستحسنون جميع الاخلاق والسجايا التى يود أن يوزعهم اياها وكان يرتسم على وجوههم المتسمة بالانتباه ما يقع بنفوسهم من الاستحسان للبطل الصبور فى منازلة الخصم ومن الاحتقار للجبان فى المنازلة ولم يكونوا يدارون قط ما قام عندهم من استحسان أو استقباح فكان الشاعر اذ ذاك اذا شهدوا له يقترح أبلغ مما أبداه ويعود الى انشاد الشعر بحماس جديد ولما كان شعراء العرب متصفين باعتماد وسند لا يماثلهم فيه أحد كانوا هم المدونين لتاريخ بلادهم قبل بعثة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولما كانوا هم أصحاب الرأى السديد كانوا يعلون ويخفضون كما يستصوبون

(١) راجع صحيفة ٩ وصحيفة ١٥ من كتاب يكون المسمى بتاريخ آثار العرب القديم وصحيفة ٤٥ من كتاب اسمانى المسمى بالبحث عن أصول العرب وكلمة عكاظ فى قاموس اللغة العربية تأليف الفيروزابادى وصحيفة ٧٦ من ترجمة رسموسن لذيل تاريخ شهاب الدين أحمد النويرى فى أخبار العرب وصحيفة ٢٥٥ من المجلد الرابع من الاغانى وصحيفة ٢٩٦ من المجلد الاول من كتاب مراصد الاطلاع الذى ذكره كوسين دو برسوال فى مصنفه وكذلك راجع تاريخ العرب قبل ظهور النبى محمد عليه الصلاة والسلام الذى ألفه روهل دوليلينسترن وكان طبعه فى مدينة لوندره سنة ١٨٣٦ ميلاديه

شأن القبائل المختلفة ومن ثم كانوا مخوفين ومحترمين عند الجميع فاما ما اقترحوه من قصائد الاشعار فكان ما يقبل منه يعلق بخط يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على الكعبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية المستقبلة

ولله درهم فى احداث هذه الكيفية لحفظ ما استحسنوه من القصائد فقد أوصلت الينا سبع قصائد وهى المعلقات (١) المشهورة وأسماء ناظمها مشهورة أيضا الى الآن الاول امرؤ القيس (وكانت وفاته سنة ٥٤٠ بعد الميلاد) والثانى طرفة (وكانت وفاته سنة ٥٦٤) والثالث عمرو (وكانت وفاته سنة ٦٢٢) أعنى عام الهجرة والرابع الحارث بن حلزة بكسر الحاء واللام المشددة (وكانت وفاته سنة ٥٤٠) والخامس لبيد (وكانت وفاته سنة ٦٦٢) أعنى عام ثلاثة وأربعين من الهجرة والسادس زهير (وكانت وفاته سنة ٦٢٧) أعنى بعد الهجرة بنحو خمس سنين والسابع عنترة ابن شداد (وكانت وفاته سنة ٦١٥) وعنترة دون غيره هو الذى فاق فى اتقان جميع أنواع الشعر الجاهلى حتى كان لا يفوقه فيه أحد فكانت العرب تجتمع كل ليلة تحت خيامهم و يتلذذون بسماع تلك القصائد العجيبة التى جمعت بين محاسن الترنم المطرب المشجى وحلاوة التوقيع العذبة الناشئة عن شوق بلا تكلف ويرون فيها جميع السجايا العربية وجميع المشتهيات التى تثير فيهم الحماسة مؤلفة بلغة كأنها لم تخلق الا للافصاح عنها وان هؤلاء الشعراء السبعة و بعض شعراء أخر كانوا معتبرين جدا وكذلك المرقشان (٢) بضم الميم وفتح الراء وتشديد القاف المكسورة (وكان أحدهما سنة ٤٩٥) والآخر سنة ٥٣٠ بعد الميلاد والنابغة الذبيانى (وكان سنة ٦١٥) ودريد بن الصمة (وكان سنة ٦١٠) وحاتم (وكان سنة ٦٢٠) والاعشى (وكانت وفاته سنة ٦٢٩) وغيرهم قد لمحوا جميعا فى اشعارهم الى حوادث عظيمة حصلت فى نجد بين القبائل المستقلة بنفسها التى كانت تسكن فى وسط بلاد العرب وأولها واقعة البيضاء التى منعت غارات ملوك اليمن سنة ٣٥٤ بعد الميلاد ثم فتوحات ملوك كندة (بكسر الكاف) الاوائل وفتوحات الحارث الذى صار ملكا على الحيرة سنة ٥١٨ ثم نصرات سلان (سنة ٤٨١) ونصرات خزاز (سنة ٤٦٢) التى حازها بيعة وابنه كليب على العرب الحميرية ثم حرب البسوس بين آل بكر والتغلبيين الذى استطال من سنة ٤٩٤ الى ٥٣٤ ونصرات زهير أمير بنى غطفان

---

(١) وكان العرب يسمون أيضا تلك المعلقات بالمذهبات أى القصائد المذهبة راجع صحيفة ١٦٤ من تأليف بركوك المسمى باصول تاريخ العرب وصحيفة ٢٩٧ من المجلد الاول من تاريخ كوسين دو برسوال

(٢) راجع من صحيفة ٥٠٦ الى صحيفة ٥٢١ من المصنف المسمى بجرنال آسيا المطبوع فى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٨ ما ذكر كثيرمير فى تلك الصحف فى خصوص المرقش وانظر ايضا تاريخ كوسين دو برسوال فقد شرح وفسر فى المجلد الثانى من تاريخه أكثر ما يعزى الى المرقشين من الكلام

على هوازن (نحو سنة ٥٦٧) والحرب الطويلة المعروفة بحرب داحس بين بني عبس وذبيان (بضم الذال) وكانا أعظم قبائل غطفان فاستطالا من سنة ٥٦٨ الى سنة ٦٠٨ بعد الميلاد مع وصفهم الحرب التي حصلت بين بني تميم وبني عامر نحو سنة ٥٧٩ وقتال بني عبس وبني ذبيان مع هوازن وبعض قبائل أخر من نسل خصفه وتشتهر بمعركة الرقم (بفتح الراء وسكون القاف) والنبعة واللواء سلا وحوراء من سنة ٦٠٩ الى سنة ٦١٥ بعد الميلاد ثم حرب بني تميم وبني بكر ولم تنته الا سنة ٦٣٠ بعد الميلاد وهو وقت دخول القبيلتين المذكورتين في دين الاسلام وقد وجدنا فيما أنشدته الشعراء الذين اشتهروا وبهروا العقول في ذلك العصر وصفا صحيحا لمعيشة عرب البادية الذين لم يغيرهم الدهر أخلاقهم البهيمية ألبتة فكان من عادتهم بعد انقضاء المقاتلات السافكة للدماء أن يعقدوا منازلات للفخار والتظاهر بالكرم يسمونها المنافرة والمنازلة التي حصلت سنة ٦٢٠ بعد الميلاد في بني عامر كافية في تفهيم صورة تلك المنافرة وذلك ان المشيخة على كل قبيلة كانت لا تقلد بها الا من كان أحق من غيره فاتفق ان علقمة وعامر بن الطفيل وكانا شاعرين شجاعين قد زعما استحقاق المشيخة وحكما في منازعتهما شيخا مبجلا على عشيرة غير عشيرتهما فخلفهما ذلك الحكم ان يمتثلا بلا اعتراض للحكم الذي يحكم به في ذلك وأجل بته الى سنة فبقي المتنافسان ينتظران مضي ذلك الوقت المحدود ويجتهدان في الاشهار باعمال الشجاعة والفضائل وما كان ذلك العصر الا عصر الشوالية (المشهور عند الفرنج) فلما حكم ذلك الحكم بان كلا منهما جدير بالرياسة على العشيرة اشتركا في الحكم وبقيا متحدين مع بعض أشد الاتحاد وكانت أنواع هذه المحاكمات تعمل بمجامع حافلة ويبقى لها تأثير أكيد في الاذهان فلا تعجب اذن بعد ايراد مثل هذه الامثلة في المنافرة من الخصال العجيبة جدا حتى تنافس فيها كل من حاتم وزيد الخيل وكانا من بني طيء حيث ضربت الامثال بكرمهما في ابتداء القرن السابع من الميلاد في جميع بحيث جزيرة العرب

(غاية الارب في تاريخ العرب)

فيما يجب للملوك على الرعية وما للرعية على الملوك

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم وفي أولي الامر أقوال أحدها انهم الامراء قاله ابن عباس والسدي وأبو هريرة والثاني انها نزلت في أمراء النبي صلى الله عليه وسلم مثل خالد وعمار قاله مجاهد والثالث انهم العلماء حكاه الزجاج وأظنه اختاره والاول هو الاشهر الاظهر فالرعية عليهم بذل الطاعة للملكهم والاستقامة لامره والانقياد لحكمه واجتناب نهيه وليس للملك أن يطالب بمحبة القلوب واخلاص الضمائر فذلك أمر رباني لا تقدر

عليه البشر ولا تملكه (وقد) تحمل بعض الاكاسرة ورام أن يضبط القلوب فقال في خطبة له أيها الناس ان لنا عليكم حق شمول النعمة وعموم السكون والدعة فمن طلب غاية لم يبلغها منا أو رام فوق ما يستحقه ولم يقسم له قاسم الحظوظ شيأ مما يرضيه فانه يسخط ويقتنا ويتمنى زوال دولتنا وما يدريه لعل الشقاء له في ذلك أكثر فاذا دخل علينا اطلعنا عليه وظهر لنا ذلك في أسارير وجهه وفلتات لسانه فنقابله تارة بالاعراض عنه وتارة بالاحسان اليه لنختبر حالتيه في ذلك فاذا تحققنا ذلك أهملناه فان استقام استقمناله وان زادت حاله فسادا عاقبناه وعقوبتنا ضرب العنق وفي هذا الكلام من دقائق السياسة وضوابط الاستيلاء ما يجل موقعه ويعظم نفعه وهكذا النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع أصحابه على السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي صحيح مسلم عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع فقال ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا وفي طريق آخر عبدا حبشيا مجدعا فعلى هذا الايطاع في معصية الله (وفي الصحاح) عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال في خطبته على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة (وفي البخاري) عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى من أميره شيأ يكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا الا مات ميتة جاهلية فعلى هذا من أظهر العناد وجاهر بالشقاق فقد خالف واستحق العقوبة

(فيما يجب للرعية على الملك)

قال عليه السلام كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فيجب على الملك أن يلتزم لرعيته بأربع خلال (احداها) الشفقة وهي تتألف من محبته لهم وخوفه عليهم وحذره كالوالدين (الثانية) العناية بهم وهي بامعان الفكر في أمرهم وانجاز ما سنح للفكر في مصلحتهم (الثالثة) التأليف من الملك أو من نائبه ممن يقوم مقامه في ذلك لانه يسوس جماعات قلوبهم متفرقة وأغراضهم متباينة فنفعة التأليف جمعهم وتأنيس نافرهم وتقريب متباعدهم (الرابعة) الرفق فانه أصل في السياسة لان القسوة اذا أفرطت نفرت وكذلك الرقة اذا أفرطت أطمعت فخير الامور أوسطها ومما يجب لهم عليه حمايتهم ورعايتهم وحفظ ثغورهم من الاعداء وطرقهم من القطاع واللصوص ومدنهم ومساكنهم من السراق وأهل الفساد فهذه وظيفة الملك وأيضا انصاف المظلوم من الظالم فان النفوس الامارة بالسوء شبيهة لنفوس السباع وأخلاقها وطباع الحيات والعقارب فانها لتذبالقهر وتستضرى عليه وتمرن ومنشأ هذه الاخلاق من افراط القوة الغضبية من وجوه إما من حرمان أو بطر أو اخلاف وعدو وعيد فاذا بلي الملك بأصناف هذه الطائفة

فيداويها بالزجر والنفي من الارض أو دفعهم الى الحروب والمصاعب (كما قالت) مرازبة الفرس لازدشير انا قد أجمعنا عليك وولينا عليك لتستبدل ما كافيه من الاساآت باحسانك فقال لهم احفظوا لي ثمرة الملك أحفظ لكم سنة العدل وأوفي لكم بالقول والفعل فتفكروا فاذا هو قد جمع لهم في هاتين الكلمتين جميع الكلام السياسي والحقوق التي لهم وعليهم (وينبغي للملك) أن يتفقد أحوال رعيته فيعطي الفقير ويكمل الناقص ويصل المنقطع ويورث ذوي الميراث ويقيل ذوي العثرات لانه كالعضو الرئيس الذي يوصل الى كل عضو بعده عنه أو قرب من الغذاء مقدار حاجته حسب اللائق به من ذلك (وفي صحيح مسلم) عن عبد الرحمن بن شماسة قال أتيت عائشة رضي الله عنها أسألها عن شيء فقالت ممن أنت فقلت رجل من أهل مصر فقالت كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه فقلت ما نقمنا منه شيأ ان كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير والعبد فيعطيه العبد ويحتاج الى النفقة فيعطيه النفقة فقالت أما انه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا اللهم من ولي من أمر أمتي شيأ فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيأ فرفق بهم فارفق به (ويجب) ان ينظر في حال رعيته فيحسن الى المحسن ويردع المسيء المجرم ويكف يد جنده عن ظلم الرعية والتعدي عليهم ولهذا كانت الملوك تتخذ منازلها بمعزل عن منازل الاجناد ومنازل الاجناد بمعزل عن منازل الرعية لئلا يتأذى بعضهم ببعض ويقع بينهم مخاصمات وشرور بين النساء والصبيان والغلمان وكذلك يكون لهم جامع مفرد وحمامات مفردة ولا تشارك الجند الرعية في حرفهم ومتاجرهم ومزارعهم فانه اذا كان الجند زراعا أو تجارا ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب وضعفت بيوت أموال المسلمين من عدم تحصيل الزكاة وما وجب ويفسد حال الرعية المتسببين والزراع (وفي ذلك) مما ذكر في فتوح مصر وافريقية قال حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بان عطاءهم قائم وأرزاق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون (قال) ابن وهب وأخبرني شريك بن عبد الرحمن انه بلغه أن شريك ابن أبي سمي العطيفي أتى الى عمرو بن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسننا أفتأذن لي بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمرا كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمي العطيفي زرع بارض مصر فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الي به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص اقرأ شريكا فقال شريك لعمرو قتلتني يا عمرو فقال له عمرو أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فاذن لي بالخروج اليه من غير كتاب

ولك عهد الله أن أجعل يدى فى يده فاذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال تؤمننى يا أمير المؤمنين قال ومن أى الاجناد أنت قال من جند مصر قال فلعلك شريك بن سمى قال نعم يا أمير المؤمنين قال لاجعلنك نكالا لمن خلفك قال أو تقبل منى ما قبل الله من العباد قال أو تفعل قال نعم فكتب الى عمرو ان شريكا جاءنى تائبا فقبلت منه (ولما) استولى جوهر المعزى على مصر بنى لسيده المعز بالقاهرة والقصور ليكون هو وأصحابه وأجناده بمعزل عن العامة وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة وبنى الجامع الازهر فى سنة ستين وثلثمائة ووصل المعز الى الديار المصرية ودخل قصره فى سنة اثنين وستين وثلثمائة وكان من أمرهم ما كان وعلى هذه العادة ملوك بنى عبد المؤمن بالغرب فعلوا بمراكش وتلمسان وغيرها (وينبغى) ان ينظر فى حال الحجاج والزوار فيصلح أحوالهم ويوضح سبيلهم ويختار دليلهم ويؤمن عليهم من يرفق بضعيفهم ويوسع عليهم فى الزاد والماء والمحل وكثيرا ما كانت الخلفاء تباشر ذلك بنفوسها أو تقدم من يقوم مقامها وتتكلف النفقات الكثيرة لذلك وينظر فى حال أهل الذمة والمعاهدين فيمنع من ظلمهم ويشفق عليهم فانهم كالعبيد والمستضعف جانبهم وكذلك يمنع من تعدى طوره وخرج عما يجب عليه منهم ويحسم المادة فى ذلك

فى سيرة الملك مع أهل الشريعة العلماء والفقهاء والفضلاء

يتعين على الملك أن يبذل اجتهاده فى اظهار رونق الشريعة واحترام أهلها واكرامهم والاثابة على تعليمها والمحافظة عليها ويأمر أولاد العلماء بالاشتغال بالعلم وكذلك يفعل مع جميع الطوائف سوى أهل الشرور والمهن الخسيسة فيتركهم وشأنهم وما تصل وتنهض همتهم اليه ولم يكن فى الدنيا أعظم دولة ولا أشمخ مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة الفرس ودولة اليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكم وتمكين من يشتغل بذلك ورعايته جانبه حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء وقديما كان الانبياء ملوكا وكانوا يشتغلون بالعلم واستنباط الحكمة حتى بلغوا فى ذلك غاية المنتهى وتعلمه نساؤهم وصبيانهم (مثل) أزرميدخت ورش الفارسيتين وايلاد بطره بنت بطليموس صاحب الحكمة والتصانيف ومثل سوريد بن سهلوق بن سرياق الانطاكى اليونانى الذى ملك الديار المصرية ووضع الحكم بعد أبويه وقبل الطوفان واشتغلوا فى زمانهم بالعلوم والاستنباطات وعلموا بحادثة الطوفان وكان سبب ذلك ان سوريد الملك رأى رؤيا هالته وأفزعته وذلك انه رأى كأن الارض انقلبت بأهلها والناس يهوون منها سفلا على رؤسهم وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات مختلفة هائلة فهمه ذلك ثم رأى رؤيا ثانية وثالثة وفسرها على علماء دولته وسحرة مملكته فاخبروه بحادثة الطوفان والرؤيا الثانية بعد الاولى بسنة وهى كأنه

فى هيكل له يعرف بدفيانوس فرأى كأن خمسة من الكواكب محصورة فى عقدة الذنب والجوز هرهابط والشمس قد انكسفت ولم يبق منها الا القليل والقمر قد انحدر من السماء فى صورة امرأة باكية تشكو زوالها فانتبه فزعا وكتم الرؤيا وعلم انها معونة للاولى فأمر بتنظيف الهياكل والمقامات والزيادة فى قربانها وذبائحها وبخوراتها وتعظيم أهل العلم والعبادة وتفقد مواضع الظلم وازالته وقصر عن اللهو وبقى مترقبا ما يحدث حتى رأى الرؤيا الثالثة وهى كأن الكواكب الثابتة فى صورة الطيور البيض وكأنها تخطف العالم وكأن الكواكب النيرة مظلمة والطيور تلقى العالم بين جبلين عظيمين والجبلين قد انطبقا على العالم فانتبه فزعا أشد من الاولين فالتجأ الى هيكله الذى فى بيته وجعل يتضرع ويتمرغ بخديه على الارض ويدعو ويبكى الى أن أصبح فاحضر رؤساء الكهنة وكانوا يومئذ مائة وثلاثين كاهنا رؤساء فضلاء وعليهم رئيس كبير يقال له اقليمون وأخبر أيضا أنه رأى رؤيا وهى كأنه والملك واقفان على رأس المنارة التى للملك باسموس وكأن الفلك قد تطأطأ ونزل حتى صار على سمت رؤسنا وصار كالكبة المحيطة بنا وكأن كواكبه قد خالطتنا فى صور شتى نورانية على قدر أجرامها والناس يستغيثون بالملك والملك رافع يديه ليدفع عن نفسه الفلك اذ باغ رأسه وامرنى برفع يدى لمثل ذلك وكأن صورة الشمس طالعة علينا ونحن نستغيث نخاطبنا أن الفلك سيعود موضعه فاذا مضى أربعمائة دورة طبق اطباقا شديدا على أهل الارض فحينئذ تخر الاصنام وتبيد الاحكام وتزول الاعلام ويقوم بالامر واضع الزمان ثم تطأطأ المنارة بنا الى الارض ويرجع الى موضعه فانتبهت فزعا مرعوبا فقال له الملك متى كانت الرؤيا فأخبره بليلتها فوجدها موافقة لليلة رؤيا الملك الاولى فقال له الملك فعلى ماذا تأولت يا اقليمون قال حدث عظيم يحدث بعد اربعمائة سنة يضر بجميع العالم الا قليلا من الناس وهو عنصر الماء فسأل هل من حادثة بعدها فأخذوا طالع سؤاله وحققوه وحرروه فذكروا حادثة ثانية ضد الاولى فقال هل من حدث ثالث لهما فقتشوا فى خفى علومهم فقالوا انعم يحدث حادثة عظمى وداهية دهيا لم يبق على وجه الارض متحرك الا تلف ويتحلل عقد الفلك باذن القديم الازلى وهى الساعة فعند ذلك أمر ببناء الاهرام والاقرونيات وهى البرابى لتكون قبورا لهم ومثوى لاجسامهم وكنزا لاموالهم وكتبهم وذخائرهم فاختاروا لها الاوقات الثابتة فى مبدأ حفر اساسها وعمارتها وتم حفر أساسها فى ست سنين وتكملت عمارتها فى ست سنين وكان فيها صناع وفعلة سبعون ألف نفس وارتفاعها بذراعهم مائة ذراع وأسه عشرة اذرع فى مثله فعاش سوريد دهرا طويلا ومات ودفن فى الهرم الشرقى وكان عمره لما عمر الاهرام ستين سنة وتملك بعده أخوه هريت فلك وأقام على منهاج أخيه مائة وثلاثين سنة ثم مات ودفن بالهرم الغربى ثم ملك بعده ولد أخيه افروس بن سوريد مائة

وخمس عشرة سنة ومات ودفن بالهرم الصغير وهذا ذكره ابو معشر في كتاب الالوف وسببه انه وجده في كثير من كتب الكهنة مثل كتاب انطاجس وباهونه ومنسبه وميا كل واستيدس وفي كتاب محمد ابن هرون العباسي مما ما نقله من كتاب علي بن محمد بن عبد الله بن حنون الطبري وكان السبب في ذلك أنه وجد لبعض أهل مصر وهو رجل من القبط يقال له ابتيمت كتاب بالقبطية في قرطاس على صدره وهو ميت من تحت أكفانه فيه مكتوب علم الاول أن هذا انتخبه فيلبش اليوناني وهو أبو الاسكندر ذي القرنين ونسخته من صحيفة ذهب كتابتها بالقبطية مخرقة منقورة أخذها من أخوين قبطيين يقال لاحدهما الاول والآخر وريثا وسألهما عن سبب معرفتهما بهذه الكتابة فذكرا أنهما من ولد رجل آمن بنوح نبي الله عليه السلام وحمله في السفينة وورثا عنه علم الاول وكان تاريخ الصحيفة من حين كتبت الى أن أخرجت لفيلبش ألفي سنة وتسعمائة سنة وخمسا وثمانين سنة ومن فيلبش الى هذا الكتاب وهو سنة ثمان وسبعمائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام ألف وسبعمائة وثلاث وثمانون سنة يكون تاريخها الى الآن أربعة آلاف سنة وسبعمائة سنة وثماني وستين سنة ولو شرحنا ما في الصحيفة لطال الكتاب وفات الغرض وهذا ثمرة العلم والاجتهاد فيه (ولقد) أجاد كسرى أنوشروان في قوله أما أهل العلم والدين فالهم علينا أن نسمع منهم ونصدق قولهم ونرفع مراتبهم ونذب عنهم ونوسع لهم ما وسع فقههم وظهر صلاحهم وثبتت نزاهتهم وعفتهم (وقال أيضا) ان من الناس صنفا طلبوا الرياسة بالدين والتفقه فأشهروا أنفسهم لذلك وربما خالفوا بعض المخالفة ليتميزوا ثم استطالوا على الناس وأذاعوا أسرار الشريعة وحقيقة التأويل والتفسير وغير ذلك للعوام والجهال حتى مالوا اليهم وانا لم نجد في ديننا فيما تقدم خلافا بين السلف ولا افتراقا الا في عهد سابور بن سابور فان أولئك المبتدعة أظهروا التفسير واختلاف التأويل وكان من عاقبة أمرهم ما كان من طلب الرياسة واثارة الفتن حتى أطفاها الله برأي سابور وحرم التذكير الا لمن يوثق بعلمه ومعرفته وأمانته ومن تعدى ذلك عاقبه (ثم ينظر) في المتفقهة الذين يتحلون البدعة ويدعون اليها ويخالفون ما عليه الجمهور ويردعهم ويفرق جمعهم وكذلك يمنع التعصب للمذاهب والمغالاة في ذلك فانها تؤدي الى فتن عظيمة وخطوب جسيمة وقد خرب كثير من بلاد المشرق بهذا السبب ثم ينظر في حال من يتظاهر من العلماء بعلم الفقه والشريعة ويبطن الحكمة والفلسفة فاذا وقع له حكم من أحكام الشريعة لا يدركه عقله ولا يلحقه فهمه أسرع الى الطعن فيه ودبر فيه برأيه وهذه الطائفة وان كانت قليلة لكنها ذميمة ونكايتها أليمة وربما زعموا ويوهمون أن الشرائع أمور موضوعة بازاء العامة دون الخاصة الذين هم منهم وان تفاصيله لا تستقر عند حاكم العقل ولو صح نظرهم وثبت عقلهم لعلموا

أن رتبة النبوة والشريعة مستعلية على مراتب الحكمة وأنها تحصل بالامر الالهى لا بالكسب الاجتهادى حتى تنتهى العقول البشرية الى معرفة المقادير الربانية فينبغى أن يحسم مادة هذه الطائفة ليشتغلوا بأنفسهم فانهم ان تفرغوا وضعوا للعامة بدعا متنوعة يسمونها حكمة ثم يدعون أنهم يطلعون على أسرار الشريعة وأغوارها ومن تتبع أخبار المتقدمين علم ان أكثر البدع والفرق بهذا السبب ظهرت واشتهرت (فأما العلماء) وحفاظ الشريعة الذين على السنة فيجب على الملك احترامهم واكرامهم لانهم يحفظون قواعد الشرع الذى هو يحرسه ويذب عنه ويقاتل من يعانده فيرفع طبقاتهم على مقاديرهم من العلوم والتبحر فيها فأول علوم الشريعة علم القرآن ومعرفة تفسيره وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وأسباب نزوله ثم علوم الحديث النبوى ومعانيها ولغاتها وأسبابها ومعرفة رواتها وجرحهم وتعديلهم ومعرفة المرسل من المسند ومن روى الحديث ورجع عنه أو تشكك فيه ومن روى بعد ما روى ومعرفة اجماع الصحابة ومن روى منهم ومن أفتى ثم علم أصول الدين هو وان كان مما يجب تقديمه لان شرف العلم بشرف معلومه لكنه مبنى على الشرع الذى هو كتاب الله وسنة رسوله فينبغى أن يكون الاصولى عالما بالنصوص الشرعية والادلة البرهانية العقلية فيبين الحدود والرسوم ويذكر الادلة على تفصيل العقائد الشرعية وهى العلم بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وما يجوز اطلاقه من ذلك وما لا يجوز وتأويل ما يحتاج الى التأويل ومعرفة النبوة والرسالة وحقيقة الوحى والخطاب والكلام ووصف المعجزة والفرق بينها وبين الكرامة والكهانة ومعرفة الجائز والواجب والمستحيل ومعرفة اليوم الآخر وما وعدت به الاخبار الصادقة من عذاب القبر والجنة والنار ومعرفة الامامة والخلافة كل ذلك من لوازم أصول الدين ثم أصول الفقه فيكون عارفا باللغة والنحو والاصطلاح فيطلع على معانى النصوص فان تحريف الاحكام لم يكن الا من الجهل بذلك فاذا عرف الناسخ والمنسوخ والمنطوق والمفهوم والخاص والعام وأحكام ذلك أمكنه أن يبنى على ذلك الاحكام الشرعية والاقيسة الصحيحة ثم علم الفروع وهو معرفة فرائض العبادات وهياتها وتكميلاتها والمعاملات وعقودها وفسوخها والمناكحات ومباحها ومحظورها والجنايات وعقوباتها والاقضية وحكوماتها ثم يخرج من ذلك الى علم الخلاف وعلم الجدل وهى علوم متأخرة عنها فى الرتبة ومستنبطة منها ومن ذلك علم اللغة والنحو وهو علم شريف يضطر اليه فى شرح الالفاظ لتحقيق المعانى ومن العلوم علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها كعلم الطب وعلم الحساب والمساحة وعلم الاوقات والازمان فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم فما أضيع دولة قل علماؤها فانها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها (وكان) المعتضد بالله

لما بنى قصوره المعروفة بالشماسية ورتبها له المهندسون زاد فى ذرعها فوق الذى اختطوه كثيرا فسئل عن ذلك فقال أريد أن أتخذ حولى مساكن وغرفا يسكنها رؤساء العلماء والفضلاء من كل فن وأجرى لهم الادرارات وما يحتاجون اليه من النفقات وكل من أراد أن يشتغل بنوع من العلوم قصد ذلك الامام واشتغل عليه وحصل منه بغير تعب ولا مؤنة وكان مقصوده انتشار العلم والزيادة فى الفضائل ولو مد له فى العمر حتى يتم ذلك لكان قد خلد ذكرا باقيا وجدد للعلوم والفضائل رونقا راقيا ألا ترى الى المأمون لما قال بالتشيع قوى أمر الشيعة فى زمنه وكاد أن يخرج الخلافة من بيته وكذلك كان يشتغل بعلم النحو واتخذ الرصد فصنف له الزيج المأمونى وظهر فى زمانه فضلاء من المنجمين مثل أبى معشر وغيره وقد قيل ان الناس على دين الملك فاذا اشتغل بأمر العلم والعلماء أو بفن من الفنون كثر فى زمانه وذكر فى سيرته (وكان الناس) فى زمن يزيد وسليمان يلقى أحدهم صاحبه فيقول له كيف كانت ليلتك وكيف غنت جاريتك ومن كانت قينتك ثم فى زمن عمر بن عبد العزيز يلقى أحدهم صاحبه فيقول كم صليت البارحة ومتى نمت ومتى قمت الى وردك وما الذى قرأت من القرآن ثم فى زمن مروان بن محمد يقول هذا لهذا كم أنفقت على قصرك وما ارتفاع مجلسك وجدارك وأحجارك على الرسم فى متابعة الملوك واقتفاء آثارهم فالملك السعيد الذى يتبع المحامد ويتقى الناس أثره فيخلد فى الخير ذكره

فى سيرة الملك مع الامراء وأركان مملكته

كانت ملوك الفرس تفضل الجند على سائر أصناف الناس ويحتجون لذلك بان الناس يبذلون منفعة جوارحهم أو حواسهم والجند يبذلون نفوسهم ورؤسهم ولا قرب بين الحالتين وكانت تجعل الناس على أربعة أقسام الجند أولها ثم تقسم الجند على أربعة أقسام على كل قسم أمير يسمى ميرميران وكل أمير معه أربعة يسمى كل واحد منهم أصفهبد ومع كل أصفهبد أربعة مرازبة ومع كل مرزبان أربعة سلارية ومع كل سالار عشرة أساورة وهم الفرسان المفردة وخمسة من الرجالة وتسمى البيادة فاذا أراد الملك انفاذ أمر خاطب بعض الامراء فسهل عليه وعلى من يخاطبه (وكانت) ملوك الروم ترتب ذلك عشرة عشرة ويسمون كل واحد باسم من لغتهم ومثاله فى العربية ان مع الملك عشرة أمراء مع كل أمير عشرة نقباء مع كل نقيب عشرة عرفاء مع كل عريف عشرة قواد مع كل قائد عشرة فرسان ومع الرجالة كذلك وبعضهم يجعل عوض العريف زعيما هذا ترتيب الاول (وكذلك) لما كثر جيش النبى صلى الله عليه وسلم رتب عليهم نقباء وعرفاء تكون مخاطبته معهم وفى زماننا هذا ترتيب آخر وهو أيضا حسن اذا استقر الحال على ما يذكر أن يكون الملك لجيشه أبا بك أتم ما يكون فى الشجاعة والكرم والمعرفة

والنباهة والشهامة والبسطة والتجارب والدين والعفة والمكنة في العدة والعدة ثم من بعده مقدموالآلاف على كل ألف فارس مقدم كبير ومعه مقدمون مفاردة على كل خمسين فارس مقدم مفردى ومع المفردى خمس مقدمين دونه مع كل مقدم عشرة فرسان وعلى الكل نقيب كبير وتحت يده نقباء ورؤس نوب على الآلاف فكل مقدم ألف معه نقيب ألف في خدمته ومع النقيب نقباء صغار على كل خمسين فارسا نقيب فهذا أحوط مايكون من الترتيب (فينبغي) للملك أن ينظر في حال جيشه وازاحة أعذارهم وأن يحملهم على اتباع الشرع والانقياد للوازم الدين مع التزامه هو لذلك فانه ان لم يكن محافظا على الشريعة لايستقيم التزامه كما قيل

متى يستقيم الظل والعود أعوج * ففي التزامه لذلك التزامهم للطاعات فيحصل خير الدنيا والآخرة ثم يتفقد أحوالهم فمن حسنت سيرته ومناصحته يضاعف الاحسان اليه حتى يتشبه به غيره ويجتهد الجند في الطاعة لله تعالى وللملكهم (ويحكى) عن بعض ملوك العرب انه كان يخرج في بعض الليالي الباردة فيصلي الفجر والعشاء الآخرة في جامع قلعة وللجامع أبواب مشرعة الى البلد تفتح في وقت الصلاة فاذا سلم الامام أمر بغلق الابواب على الناس ثم يأمر لكل من حضر الصلاة بخمسة دنانير أو بثمانية وربما أمر بعشرة وكذلك يفعل في يوم عاشوراء المحرم والقصد بذلك الترغيب في الخير والمواظبة على الصلاة (ويجب) على الملك أن يحسن النظر في حال الامراء وتقديمهم وارتفاع درجاتهم لمن تظهر منه النجابة والشهامة والدين ولا يفعل ذلك بالهوى وميل النفس بل بالفكرة والمشورة والتجربة فان الخطأ في ذلك مضر فانه ربما يخف على قلبه شخص ويثقل آخر فيكون الخفيف غير أهل لما حصل له من التقدمة والآخر أهل لها فيحصل الخطأ وتتولد المضرة كمن يتناول الحلو الضار ويترك المر النافع فليشدد الاحتراز في ذلك ويفرق بين الشريف والمتشرف والجندى والمتجند فانه ان أهمل ذلك وقدم على غير نسق صارت الرؤس أذنابا والاذناب رؤسا وتحكيم الصغار شديد المضرة سريع الخلل ومن اعتبر سير ممن مضى في زماننا هذا وجد وقائع كثيرة من هذه النسبة حصل بسببها مالا يستدرك فارطه وقد يوجد في الصغار والوسط من تكون فيه نجابة وكفاية كما يوجد في أبناء ذوى الشرف من فيه القصور والتخلف فليوصل كل أحد الى موضع يليق به على التدريج (ويجب) أن يمنع الجند من الجلوس في الحوانيت والاسواق للتجارة والصناعة ومزاحمة الرعية في معايشهم فان في ذلك تضييقا على الرعية ثم يتفقد أحوال الجند ومن عجز الى رحمة الله منهم ومن حصل له العطب في الغزاة أو الهرم في الخدمة فيحسن اليهم والى مخلفيهم ويطلق لهم مايقوم بأودهم وان كان في أولادهم من يقوم مقامهم أجرى لهم ما كان لهم جاريا وكذلك كانت تفعل الملوك المتقدمون (وقال) النبي عليه السلام من ترك كلا أو ضياعا فالي وعلي

وكذلك ينظر فى حال من افتقر أو ركبته الديون واقطاعه قليل لا يقوم بحاله و ينظر أيضا فى حال الجند البطالين الذين طلبوا منه استخدامهم فلم يستخدمهم أو أعطاهم اقطاعا لا يرضيهم فانهم يتربصون به الدوائر و ينظرون له ريبة يتبعونها فيحترز منهم اذا كثروا إما بالارضاء أو بالابعاد (وصنف آخر) من الجند تركوا الجندية اختيارا وملالا فان اشتغلوا بزهد أو بتجارة أو صناعة تركوا وشأنهم فان حصل منهم من الشر ورما لا يمكن تداركه فيجب أن يشغلوا و يعدوا (وصنف آخر) من الجند ذو و بأس شديد وشجاعة أفرط اعتقادهم فى حق أنفسهم حتى ظنوا أن انتظام الدولة بهم واستقامة الملك بسببهم وانه لا يستحق العطاء والحباء غيرهم ومتى أعطى غيرهم أو أكرم حنقوا وان توقعوا أو طلبوا شيأ لم ينالوه تحزبوا وظلموا فينبغى للملك العارف أن يفكر فى حالة من أحوال الفروسية يعلم أنهم مقصرون فى بلوغ غايتها فيندبهم لها ليتبين لهم التقصير و يعرفهم بها فيعرفوا مقدار نفوسهم (آثار الاول فى تاريخ الدول)

الباب الخامس فى المقامات

(المقامة الفرضية)

(أخبرا الحرث بن همام) قال أرقت ذات ليلة حالكة الجلباب هامية الرباب ولا أرق صب طرد عن الباب ومنى بصد الاحباب فلم تزل الافكار يهجن همى و يجلن فى الوساوس وهمى حتى تمنيت لمضض ما عانيت أن أرزق سميرا من الفضلاء ليقصر طول ليلتى الليلاء فما انقضت منيتى ولا أغمضت مقلتى حتى قرع الباب قارع له صوت خاشع فقلت فى نفسى لعل غرس التمنى قد أثمر وليل الحظ قد أقمر فنهضت اليه عجلان وقلت من الطارق الآن فقال غريب أجنه الليل وغشيه السيل و يبتغى الايواء لاغير واذا أسحر قدم السير قال فلما دل شعاعه على شمسه ونم عنوانه

(أرقت) أى سهرت (حالكة) أى سوداء (الجلباب) هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء والمعنى انها شديدة الظلام (هامية الرباب) أى سائلة السحاب واحدة ربابة بالفتح وهى سحابة بيضاء رقيقة وقد تكون سوداء (صب) أى عاشق (ومنى) أى ابتلى (يهجن) من هاج اذا ثار وهجته أنا أثرته هيجا (و يجلن) من أجاله اذا أداره وحركه هكذا وهكذا (الوساوس) جمع الوسوسة وهى حديث النفس أو الكلام الخفى (وهمى) أى بالى وفكرى (لمضض ما عانيت) أى لحرقة و وجع ما قاسيت (سميرا) أى محادثا بالليل (الليلاء) أى شديدة الظلمة كقولك شعر شاعر فى التأكيد (منيتى) أى ما تمنيته وطلبته (أغمضت) أى أطبقت الاجفان (قرع) أى طرق وضرب (لعل غرس الخ) كناية عن كونه ترجى حصول مطلوبه وسؤله بهذا الطارق فيثمر ما غرسه من التمنى و يقضى ما أظلم ليلته من عدم التهنى (فنهضت الخ) أى فقمت اليه مسرعا (الطارق) هو الذى يأتى ليلا (أجنه) أى ستره (وغشيه) أى أتاه وأدركه (الايواء) أى ادخاله المنزل لانه مصدر آوى المتعدى (أسحر) أى دخل فى وقت السحر (قدم السير) أى لم يطلب غير المبيت الى السحر ثم ينصرف (شعاعه على شمسه) يريد أن ما بدا منه من حسن المخاطبة يدل على علو شأنه و بديع بيانه (ونم عنوانه الخ) العنوان ما يكتب على ظهر الكتاب ونم بمعنى أخبر وهو فى معنى ما قبله